



مجلة ألف: اللغة، الإعلام والمجتمع، مصنفة في فئة ب

قسمة مصطفى - امعة الجلفة

فضاء المدينة في الرواية الجزائرية

L'espace urbain dans le roman algérien

City space in the Algerian novel

تاريخ النشر ASJP	تاريخ الإلكتروني	تاريخ الإرسال	 Algerian Scientific Journal Platform
-2024 12-15	2024-11-25	2022-09-04	

الناشر: Edile- Edition et diffusion de l'écrit scientifique

إيداع قانوني: 6109-2014

النشر الإلكتروني: <https://aleph.edinum.org/11015>

تاريخ النشر: 2024-11-25

<https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/226>

النسخة الورقية: 2024 12-15

ترقيم الصفحات: 155-172

دمد-د: 2437-0274

ردمد-د: 2437 1076

المرجعية على ورقة

قسمة مصطفى، « فضاء المدينة في الرواية الجزائرية », 2025, 155-172 | Aleph, 11(5-2).

لمرجع الإلكتروني

قسمة مصطفى، « فضاء المدينة في الرواية الجزائرية », mis, 2025, 155-172 | Aleph [En ligne], 11(5-2) | 2025, mis, en ligne le 25 novembre 2024. URL : <https://aleph.edinum.org/13598>



## فضاء المدينة في الرواية الجزائرية

## L'espace urbain dans le roman algérien

## City space in the Algerian novel

قسامية مصطفى

جامعة الجلفة

## مقدمة

يعتبر فضاء المدينة أنموذجا مصغرا لفضاء العالم الكوني الفسيح، ويشكّل بتظافر أجزائه وتراصّها حياة متجددة الأحداث ومتشاكلة في طابعها العام، فهي رحلة في حدود الزمان والمكان، موازية لتلك الحياة الإنسانية الخاصة بكل فرد منتمي لعالمه المستقل بكل جزئياته، حيث تجسد المدينة في صورتها الخارجية تنوع معالم الإبداع اللامحدود للإنسان منذ القديم، من خلال تكريسها لمبادئ الانسجام الحضري والتداخل العمراني، وإسهامها في تحديد الإطار العام للحياة البشرية عموما، والتي تتفاضل فيما بينها، نتيجة لرحلة التطور الثقافي والفكري المتسارع لمختلف الفنون والعلوم، الذي شكّل فارقا في إقامة المدينة على أنساق وخلفيات ثقافية وإيديولوجية مقصودة وموجهة، تعكس في فحواها القيمي التنوع الحضاري لمجتمع الإنسانية، وتؤشر في ظاهرها على خصوصية الإنسان المتماهي مع فضاءه، وتؤسس في عمقها لشخصنة المكان وأدلجته بما يتناغم وروح الفكر الأصيل والمتجدد .

وفن الرواية في بداياته التأسيسية إبداع ولد وترعرع في حضن مدني، وتركيبية سردية تستجمع مادتها من حيثيات تحتضنها المدينة وتسهم في نضجها، وخارج معمار الرواية تحتضن المدينة أركان العملية السردية، كالروائي والسارد والمسرود له وكل الوسائط المتعلقة بالحكي قبل احتوائها المادة السردية. ولهذا جاء تطور بنية الرواية في صورها المتنوعة متناغما مع التمججات التي عرفها تاريخ المدينة، كما مثلت مضامينها انعكاسا للتطور الحضري للمدينة، تباينت موضوعاتها بين التوافق والتضاد في كل القضايا المطروحة، والرواية الجزائرية عينة في هذا المقال لاقتفاء دلالات فضاء المدينة وتعالقاتها، وتضييق دائرة المقال أكثر مع مناقشة بعض التداخلات المكانية في شكل تقاطعات ثنائية، توضح مكامن التداخل وتجلي النتائج المتوخاة من ذلك التعالق المفتوح على عدة تأويلات. فإذا كانت جغرافيا الفضاء بمثابة الركح الحاضن لفاعلية الأفعال والفواعل الروائية في حركتها وسكونها وما ينجر عن ذلك من نتاج حدثي، يبلوره الروائي إلى عملية سردية محكمة النسج والبناء لتشكل صورة مكتملة للمعمار الروائي، فإنّ هذا المنحى يدخل

الروائي في ضرورة الاعتناء بالجانب اللامادي للأمكنة ليستنطق الأرواح المبتوثة خلف ستائر المدينة.

وهذا ما جعلنا نثير تساؤلين جوهريين تدور في فلكهما مقالتنا وهما على النحو الآتي:

1. ماهي أهم التعالقات التي يطرحها الروائي الجزائري حين يبني ديكورا مكانيا مفتوحا في نضبه الروائي؟ وهل من قصدية له في الاعتناء بالفضاء موازاة باعتنائه بالأفكار؟

2. وللتفصيل في إثراء التساؤل والإحاطة بفك جوابه، اعتمدنا منها وصفا تحليليا، بدأناه بعرض لقيم المدينة والتمدن وعلاقته بحضارة الإنسان، ثم تطرقنا لحضور المدينة في حكي الإنسان، لنعرج على المدينة في الرواية الجزائرية من خلال بعض الروائيين الجزائريين الذين اعتنوا بفضاء المدينة في متوهم السردية لنقف على معانيها الأدبية والإنسانية.

### 1. فضاء المدينة وفعالية الإنسان / جدلية التأثير والتأثر

تستمد تيمة المدينة دلالتها العميقة من فعالية مساحتها الواقعية المترامية ضمن مدى الأفاق، وينعكس صداها في عمق النفس البشرية من جراء تشظي حدودها المفتوحة مع مكونات الفضاء الحاضن للفعاليات النشطة والمستدامة للإنسان منذ القديم، بفعل المنحى الديناميكي لتطور مظاهر الحياة المتغيرة على الدوام، أين تفرض وجودها الأدبي ضمن محددات التصور الشمولي للفضاء وداخل الإبداع الإنساني عموما، فهي صورة تقترب من تجسيد معنى الحيز الذي يحتوي أمكنة أصغر مساحة، كون المكان الواحد المحدود يثقل عليه حمل معاني متنوعة وأشكال متباينة، وفي نفس الوقت تشكل المدينة جزء من روح الثقافة العمرانية العريقة، إذا ما قرنا مصطلح المدينة بالإنشاءات الكبرى، التي كانت في صلب التعاقب الحضاري بين الأمم القديمة، فالمدينة في تكوينها الواقعي لم تنشأ جملة واحدة ولم تستقر على هندسة معينة، فهي حكاية رحلة طويلة لبناء والتطور المكاني، فقد تنشأ من أصغر مكون مكاني كالبيت، وتبدأ في رحلة النشوء والنمو عبر مراحل أكبر، كالشارع والحي والتجمع الفوقية، ثم تتحول إلى التدرج في التصنيف الإداري الذي يشترط عدد الساكنة وامتداد المساحة وتطورها في ترقية الأمكنة إلى درجات أعلى، إنها عملية تحول من نمط معيشي مستقر إلى آخر متغير، ومن مستوى حياة بسيطة إلى مستوى حياة أكثر تعقيدا في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وهي أيضا نقلة تثبت المنحى التصاعدي للربغبات البشرية على مر العصور في التطور والتطلع للأفضل، حيث «مر الإنسان بتغيرات مختلفة في حياته الطويلة إلا أن أهم هذه التغيرات كانت ثلاثة:

1. انتقاله من حالة البحث عن الطعام إلى إنتاج الطعام والمعيشة الثابتة. أي إلى حالة القرية.
2. انتقاله من القرية إلى حياة المدينة الأولى.
3. انتقاله من حياة المدينة الأولى إلى حياة المدينة الصناعية» (شوقي عبد المنعم 1981: 38)، وهو رأي « ابن خلدون » في تفسيره للاختلاف الحاصل بين الأجيال المتعاقبة عبر الزمن وتباينها في أنماط الحياة وضرورتها، وتوضيحه للمنى المتنامي في حياة الإنسان منذ القديم، فيقسم المجتمعات إلى ثلاثة أصناف مختلفة في المعاش، الأول مجتمع ضروري والثاني مجتمع حاجاتي والثالث مجتمع كمال،

«فالبدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه، وإن الحضرمعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجاتي والكمالي وسابق عليه، لأن الضروري أصل والكمال فرع ناشئ عنه، فالبدو أصل المدن والحضروسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلًا، فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة، ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي، يجري إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها» (ابن خلدون 2006: 472)

وبهذه السيرة المتنامية لبناء المدينة وتطور حيثياتها الفاعلة والمنفصلة مع غيرها، في مساحات مكانية لا متناهية، واستغراقها لحقب زمانية متسارعة ومسجلة عبر التاريخ، تداخل ذكرها ضمن آثار إبداعية إنسانية متنوعة، أماطت اللثام عن جملة التداخلات الأدبية والفكرية والثقافية للحياة المدنية، وتحويلها إلى موضوعة حيوية للتفكير والتدبر، وكان لها الحسم في تحديد الكثير من المؤشرات والقيم، وكذا إرساء العديد من التيارات المتخصصة التي أضحت علومًا مستقلة في ميادين محددة، تستقرّ جزئيات المدينة وأركانها، وتستنبط الدلالات الكامنة قبيل إنشائها وأثناء وبعد استوائها، وتواصل الحفر في معاني الحياة داخلها، فتوالدت الآراء واستوت الأفكار حول علاقات الإنسان بمحيطه وبمدينته، وأضحت نظريات مؤسسة يعتد بها كالرأي القائل «الإنسان بن بيئته» والمقولة «الإنسان اجتماعي بطبعه»، وكانت السنن والأعراف قبلها تدعو إلى حياة الاجتماع وتوصي على مبادئ التآلف والإعمار.

إن المدينة في أسى قيمها معنى موسع لاستقرار الإنسان وتكاثره، وهي ملمح حقيقي لإعجاز عالم الإنس في الأرض، إذ لا تعرف مساحتها الاستقرار طولًا وعرضًا، جراء النشاط المتنامي في زواياها الممتدة، بفعل الحيوية الفكرية المطردة للإنسان، الذي يميل

بطبعه إلى التوسع والتحرر من ضيق الحدود، فيشق الطرقات الطويلة في السهل وفي الوعر، ويشيد الصروح الفخمة مختلفة الأشكال والألوان، فيساهم بذلك في بناء المزيد من أجزاء الأمكنة في كل مجالات الحياة وتخصصاتها.

«فإذا كان المكان يتشكل بالدفء الذي ينهض من روح الكائنات فيه، وإذا كان الكائن بمسيرته مجموعة من الأمكنة تشكلت في ذاكرته وشكلت ذاته، فإن سيرة المكان لا تنفصل بشكل من الأشكال عن سيرة الكائن الذي يطلق روحه وذاته في المكان بقدر ما يطلق المكان روحه في ذلك الكائن، ليصبح الإنسان تكويناً واحداً يكتب تاريخ وجوده» (بهيجة الصري إدلي/عامر الديك 2011: 103)

وتحولت أشكال المدن وطرق تسييرها في عصرنا المتسارع إلى مقياس لمقدار التطور العلمي والتكنولوجي ومعياري للتحضر البشري، إذ على أساسها تصنف مراتب الأمم، بل استحال هندسة المدينة إلى مضمار للتسابق العمراني، وحقلاً إجرائياً للتفاوت في تحقيق شروط العيش الكريم، كالسهر على نظافة المحيط واحترام البيئة وتزيين المساحات وتنوع المرافق الخدماتية، وصولاً إلى مدى توفر شروط الرفاهية وتحقيق المدنية المثالية التي يتطلع إليها أصناف وطبقات خاصة من السكان أصحاب المال والأعمال، عن طريق خلق ترسانة قوانين صارمة لتسيير الفضاءات العمومية والخاصة، وهنا يتحول التسابق إلى رهان لتحطيم أرقام قياسية، تتفاوت فيها المدن والشوارع في معايير الطول والعرض وكبر المساحة وعلو المباني، حتى أضحت للمدينة علومها المنشئة وقوانينها الضابطة لهيكلها.

وظهرت المدن الجديدة التي تمثل

«المجتمع المحلي المستحدث الذي يتم إنشاؤه بناء على أسس تخطيطية شاملة ومتكاملة بكل جوانبه الاقتصادية والفيزيائية والتنظيمية، وبلي ذلك نقل العناصر البشرية المختارة بشروط معينة، وذلك بهدف تحقيق وضع اجتماعي واقتصادي متطور عن الوضع في المدن التقليدية السابقة، ويكون الهدف منه تنمية وتطوير الموارد البشرية والاقتصادية ورفع المستوى الاجتماعي.» (مصطفى عمر حمادة 2012: 39)

ومنها المدن المتخصصة في بنائها على غايات وأهداف لتطوير مجال حياتي معين أو لتنمية فن من الفنون أو علم من العلوم، كالمدينة الذكية ومدن العلوم ومدن السياحة ومدن الرياضة ومدن الطب ومدن الفنون وغيرها، فتمايز المدن يعود إلى

«العوامل والأسباب التي أدت إلى نشوئها وتكوينها وتطورها، فهناك مدن تجارية، ومدن دينية، ومدن صناعية، ومدن تاريخية، كما أن هناك مدناً

تستمد أهميتها من كونها مصدر القرارات والاختبارات السياسية» (رزاق إبراهيم حسن: 1984: 17)

وعلى غرار المدن العريقة التي خلدها التاريخ، فكان لكل حضارة عاصمتها الكبرى، التي هي بمثابة الرأس للجسد، تدير الكل المجرأ فتحفظ له استمراره، وترفع ذكره في الخالدين، وتحاكي في رسمها للأبنية ووظيفة المتحف المفتوح أمام الإنسان المعاصر، للوقوف على كل التفاصيل لمعاملها ووظائفها المادية والمعنوية، وكذا لطرق تأطيرها الشوارع والحارات، بكيفيات دقيقة ومدروسة، تظهر أسبقية الحس الفني المعماري عند الإنسان القديم، وتبرز إحساسه المرهف بتنظيم إطاره المعيشي، وتجسيده لمبدأ الشخصية المعنوية المستقلة في كل مظاهره القريبة والبعيدة، للتعريف بالعادات والتقاليد ومختلف الخصوصيات الحضرية، في صورة حية لتعاقب الأنماط العمرانية، ولتراكم الفكر الحضاري الذي يؤشر على صراع هادئ بين القيم والقوى المتعاقبة على مساحة الفضاء.

فسقوط فضاء المدينة في كتب التاريخ القديم والحديث يعني سقوط حدود الجغرافيا القريبة والبعيدة للدول والإمبراطوريات الكبرى، وهو مؤشر على سقوط موازي لفلسفات وبيولوجيات إنسانية وطموحات بشرية سيطرت على الفضاء، وكان لها الأثر الواضح في تصميم وتوجيه زوايا المدينة، التي ستبقى شاهدة على مرور الحضارات بين جنباتها الضيقة وفي عمق سفوحها الشامخة، فالتاريخ يذكر حضارة الإغريق ومدنيتهم أثينا في اليونان، ويمتدح حضارتها وازدهارها وما تزخر به من روافد العلوم والآداب والأعلام في كل مجالات الحياة، ولم ينس التاريخ ما حدث لأثينا بعد سقوطها في يد الرومان، حين شهد على بقاء الحضارة اليونانية قائمة حتى بعد الهزيمة، كون الانتصار السياسي والعسكري الروماني لا يمكنه أن يأتي على نسائم التطور الفكري الكامن في زوايا الأمكنة وضمن خلايا العقول، بل أكد التاريخ تبعية الفكر الروماني للفكر اليوناني، وقيام حضارة الرومان على قواعد الحضارة اليونانية،

«وقد عرفت حضارات الشرق مدنا تشبه لبناتها ومعمرها بالعبقرية والإبداع، ولعل من أعظم هذه المدن تلك التي قامت في بلاد الرافدين ومصر واليمن وكان من أشهرها بابل وصنعاء، وسبأ وطيبة، والإسكندرية وبيت المقدس وغيرها» (قرطي خليفة 95/94: 13).

كما جسدت المدينة الوجه العنيف للإنسان، حين اتخذها عنوانا صريحا لمعارك طاحنة وحروب طويلة، خاضها الإنسان الحديث واختلفت معانها بين فكر الغزو التوسعي المباشر وبين فكر الغزو العقدي، وتنوعت طرقها ووسائلها بين أساليب الحروب التقليدية والحروب الحديثة، واعتلت عنوانا للسقوط ومرادفا للهزيمة ولانتهاء حقبة

الشموخ المكاني والازدهار الحضاري، وهي أيضا معنى لنهاية حدود الأمس وبداية حدود اليوم، عندما تقترن بالحاجة الماسة للبناء والإعمار، كونها طبيعة وحاجة بشرية ترفض ألوان الخراب والحروب، وتتطلع دوما لفضاء مدني حضري أكثر أمان وأكثر شفافية، وترنو إلى الاتجاه صوب المستقبل الذي يبعث أطيايف الحياة، بخطى ثابتة تتراكم مع الحاضر المتسارع لتشييد المدينة الفاضلة التي تتسع للجميع دون تمييز أو تفاضل.

فالمدينة في دواخل النفس هي صورة مكبرة لأحلام الإنسان وانكساراته، وهي أيضا صورة راسخة لإصراره وتحديه في تديره لأفق المستقبل، حين يأخذ من ماضيه وحاضره دعائم نفسية تتراوح بين الرجاء والخيبة، وتشكل معه ثنائية التأثير والتأثير بالفضاء الذي أنشأه من العدم، وساق له بواعث التطور والانعتاق من العبودية المقنعة لفكر الحدود المستحيلة، فكان ارتباطه بالفضاء يستمد معنى الهوية ويتناغم مع ثوابتها، « فالذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها، بل تبسط خارج هذه الحدود حيث المكان الذي يمكنها أن تتفاعل معه » (الشريف حبيلة 2010 : 22)، وهو ما جعل الإنسان الروائي يذوب مع المدينة في كتاباته، ويتحدث عن زواياها كأنما يصف نوازعا في ذاته، ويتأوه لهول الأناية البشرية حين تدوس على معالمها العريقة، بل وينتصر للجماادات والأبنية القفار على حساب بني جلدته في صورة واضحة جلية لرسوخ رياح المدينة في أوصال الإنسان وفي عمق عروقه، وهو رأي ينافح عنه الروائي « عبد الرحمان منيف » صاحب خماسية « مدن الملح » في قوله « إن المدن هي البشري التاريخ وبالتالي فإنها الذاكرة الحقيقية لما كان ولما يجب أن يبقى » (شرف الدين ماجدولين 2010 : 51).

إن وفاء الإنسان للمدينة له ما يبرره، فالمدينة الحديثة وإن جمعت بين ثناياها ثوابت التاريخ الحضاري للأمكنة العتيقة فإنها انصهرت في مفاهيم العصرية وأتت عليها رياح الحدائة واشترطت العولمة، مما جعلها ترضخ لنوازع الإنسان وتلي له رغباته المتزايدة، وتكون أكثر مرونة مع اشتراطاته في نوعية الحياة، فأضحت المدينة الركن الركيز والحيز المفضل للإنسان، مما يفسر هجرته المتزايدة من الأمكنة المحدودة كالريف والقرية نحو رحاب المدن، رغم مأخذ المدينة وصخبها، فالتحول إلى المدينة هو تحول شامل في المكان والزمان، فالهدوء وسعة الأفق عملتان نادرتان ضمن فضاءها،

« هذه مرحلة أخرى من مراحل الصورة الأليمة المريرة التي يلحظها الناس داخل المدينة، فالشيء الذي يحكم علاقاتهم هو السرعة...إنها رمز للطرف الثاني من أطراف الصراع داخل المدينة المليئة بالأحزان هذا الطرف هو الوقت، فما أكثر ما يتحملة إنسان المدينة من أعباء صغيرة لا تنتهي. » (عبد الحميد

لكن هوس الإنسان بالمدينة ومفاتها وتفاعله مع غنجها وعنادها يغطي على مثالها، ويجعل من هذا الفضاء الصاحب رافدا للإبداع الإنساني وملهما للوحي السردى بكل المقاييس، إذ المدينة في سمو معناها

«ليست مجرد أبنية أو شوارع أو ميادين أو معدات للحياة اليومية توفر الوقت والمجهود، بل إنها نوع من الحياة جديد على البشرية يجب أن نرى له الأساس المعنوي، وما يتضمنه من تنظيم اجتماعي لا بد أن يصل مرتبة التضامن والتماسك.» (محمد عاطف غيث 1972: 105)

## 2. فضاء المدينة وفن الرواية / جدلية الحضور والغياب

شكل فضاء «المدينة» ضمن المتون الروائية المعاصرة حقلا إجرائيا خصبا، من خلال حضوره اللافت وتجسيده المكثف في المنجز السردى، واشتغال الروائيين عليه بكل عناية وفنية، قصد إخراج الأمكنة من طبيعتها السكنوية الثابتة إلى طبيعة مغايرة، تتسم بالحركية والحيوية الدلالية، ويتراءى ذلك الاحتفاء بالمدينة، عندما يلبسها السارد خلفيات فكرية وتنوعات ثقافية، يتجاوز معها الحيز المدني معانيه الهندسية المألوفة، ليحمل نقاشات واستنارات لإشكالات عميقة، تبعث على التدبر في معاني الأمكنة، وتغري بالانفتاح على الحفر في تسجيلات التراث، والنبش في مكونات الإرث التاريخي العريق، كونه الشاهد الثابت على التشكلات الأصلية لروح المدينة والسجل الصامد لحفظ الأفكار والخلفيات الإيديولوجية والمعرفية، التي سطرت الأسس النظرية الأولى لإقامة مفاصل البناء، وأرست أساساته ودعائمه الراسخة في حدود الزمن القريب والبعيد، إذ بداية البناء الهندسي فكرة تصميمية دقيقة وشاملة، تراعي الخصوصيات الثقافية والدينية، وترسم النمط الخاص بمكونات الشخصية القاطنة لهذا الفضاء المتحرك، وكل متعلقات المحيط العام للمدينة، وتحاول أن تستلهم من روح الانتماء أسرارها لتقوية شروط التجانس والاستقرار ضمن حدود المدينة، وتمكن الأمكنة من ضمان البقاء والرسوخ في سجلات التاريخ العمراني .

فتجليات فضاء المدينة ضمن فضاء الرواية ليست مجرد أطلال خالية تستوقف الناظرين، وليست بقايا هياكل خاوية الروح، تستجدي عطفهم على زواياها المترامية، بل هي جغرافيا حية تتوالد في حضنها الرؤى وتسمع الأصوات، وتنبعث من وحيها السرود بصيغها المتعددة، في وصف يجاري كهرياء المساحات الواسعة عموما، ويدقق في رسم الزوايا الضيقة خصوصا، فللمدينة في الرواية جمالياتها التي تطبع المكان عند انفتاحه على عالمه الفسيح، تحمل همومه وتستدعي أحلامه، لتستنطق صمته وتزيل شروده، وهو

رأي الناقد « حسن بحراوي » حينما يتحدث عن تعالق المكان بعناصر البنية السردية، في المقدمة التي وضعها لكتاب الفضاء الروائي إلى القول :

« لا شيء في الرواية يتميز بالاستقلالية عن البنية المكانية، كما أن كل المواد والأجزاء والمظاهر الداخلة في تركيب السرد، تصبح تعبيراً عن كيفية تنظيم الفضاء الروائي، وعليه يمكننا النظر إلى المكان بوصفه شبكة من العلاقات والرؤيات التي تتضامن مع بعضها لتشييد مواقع الأحداث، وتحديد مسار الحكمة ورسم المنحنى الذي يرتاده الشخص...» (جيرار جنيت وآخرون 2002: ص6)

ولعل تراكم دلالة المدينة في الرواية يعكس عراقة المدن والإنسان المبدع لها، واقتراها بمعنى المدنية والحضارة منذ الأزل، كونها فضاء تعاقبت عليه حضارات مختلفة التوجهات والانتماءات العرقية والعقدية، وجاء معمارها متبايناً في الزمان ومتداخلاً في المكان بطرق جسدت ألوان الاختراق لحدود الفضاء، وفعلت صنوف التفكير التاريخي والجغرافي بمختلف معانيه من بناء وإعمار وازدهار إلى معاني الأفول والغزو والاستعمار، مما جعل دلالة المدينة في الرواية تخرج عن طبيعتها المادية الصامتة إلى طبيعة ناطقة، تؤخذ مرتكزا بنائياً في السرد، ومحفظاً يستثير ألوان الحكيم، حين يستثمر في متغيرات حدود المساحة الشاسعة، ويستلمهم من تصورات الموقع الاستراتيجي الجذاب للأماكن، فالسارد في بنائه للمرويات

« اختارها لتمير فكرته، ولم تعد مجرد مكان للأحداث، بل استحالت موضوعاً خاصة مع تنامي العوامل الداخلية والخارجية، فمن الناحية الاجتماعية تعد ذات كثافة سكانية كانت سبب مظاهر كثيرة ومشكلات نفسية واجتماعية استغلها الراوي في تشكيل صورة المدينة في الرواية.» (الشريف حيلة 2010: 256)

فكانت بنايات المدن وشوارعها قلاعاً صلبة في معمار الرواية، وحملت في المضامين الروائية مسميات عدة حسب كل حقبة، لترسم تعلق الإنسان بأرضه وتشبثه بأصله عبر العصور، كما أماطت اللثام عن رسوخ الطبيعة النفسية والاجتماعية للروح المحلية، وبقاء سمة الوفاء والانتماء لصيقة بمكونات المدينة، التي تستمد قوتها من رسوخ معالم عميقة في ذهنية الفرد المنتمي للمكان، تصل حد الذوبان في نسج فضائه، ف

« الإنسان يستمد قوة إضافية، وبعده إنسانياً أعمق من خلال ممارسة اجتماعيته، ومن خلال شعوره بالانتماء إلى كم كبير من الآخرين، الذين يقاسمونه الهموم ذاتها، ويشاركونه التطلعات ذاتها، ولذلك كانت المدن ملاذاً

أما لكل من يرغب في -بصورة واعية أو غير واعية- بالانتماء إلى المجموعة البشرية التي يجد نفسه جزءا منها» (صلاح، صالح: 2014: 143)

فالرواية صناعة مدنية وملحمة برجوازية (جورج لوكاتش 1979: 07) كما وصفها «جورج لوكاتش»، وهذا يعني أن ظهور الرواية وتألقها هو علامة على انبثاق الطبقة الوسطى بوصفها قوة تشكل التاريخ، ذلك أن الرواية وثيقة الصلة بتشخيص القضايا الاجتماعية والثقافية، وهي تأتي أيضا استجابة للتغيرات في المجتمع والفلسفة ومفاهيم التاريخ (والسن مارتن 1992: 20)،

«إنها هوس إنساني بثورة الأمكنة وتحولاته عبر العصور، فهي بناء تخيلي متجدد، يخترق المستحيل ليثبت الممكن في إعادة الحياة لزوايا المدن الغابرة، ويستدعي السارد بما أتيح له من تقنيات السرد زخم المدن الحاضرة، لتبوح بما جادت به تلاحقات الفكر الإنساني مع رغباته في بناء حضارته الخاصة، ومدى تأقلمه مع مختلف الذوات الأخرى العابرة للأزمان، فكان لكل روائي مدينته المهمة القاطنة في مخيلته ووفق رؤيته، فهو يستجدي بحكيه تراثها، وينفخ في جسدها من روحه، لتتجلى له في بناء يروق لنظره، ويفجر سروده الكامنة، لتستحيل المدينة المألوفة شكلا مخالفا وتفصيلا مغايرا، يشبه المدن العجائبية في بعض التصورات السردية، لأن فضاء الرواية فضاء مرن في التشكيل المكاني، يستوعب كل التخيلات الهندسية المسبقة، ويرتدي مختلف المقاييس المتاحة دون اشتراطات أو محاذير»، سواء كان ذلك المكان واقعا محسوسا أو كان مجرد حلم أو رؤية» (حسن بحراوي 2009: 25)

تؤطر أبعادها المترامية سعة التخيل الروائي، وتحدد معالمها الدقيقة مساحة اطلاعه على فنون موسعة، تسير الوصف المكاني بكل أنماطه وتجسده على أرض الرواية. وفي تتبّع للدراسات النظرية للرواية الجزائرية في شقّ مكّون الفضاء نجد فضاء المدينة حاضرا في أغلبها، وهو أمر مبرر بكون الرواية فن مديني، «تستأثر من بين جميع الأجناس الأخرى، بقدرتها على اكتناه معنى المدينة، أو فكرتها الجوهرية تركيبيا، بوصف طريقة التركيب سبيلا لإنتاج المعنى، فالرواية قائمة على أساس التنوع والتراكب اللذين يسمان مدنية أية مدينة» (صالح، ولعة 2000: ص38). سواء من المدن البائدة أو تلك المدن المستقبلية الشبيهة بمدن الخيال العلمي، فحدود الرواية تسع مدنا بأكملها، وتلتهم بشغف عوالم لا يحدها إلا عقل الإنسان مع امتداد الزمن، والمدينة أيضا هي فضاء محب للروائيين كونها مساحة غنية بالمادة السردية، وبنية خصبة صالحة للاستثمار في مشتقات السرد في الفنون الأخرى.

إنّ المدينة من خلال صورتها الطبيعية الناصعة والملممة للعارفين بخلفيات الآثار الإنسانية، ومن خلال تجليها للناظر الثاقب لمقوماتها هي إبداع إنساني منقطع النظير، يجسد القيمة الفنية لفكر الإنسان في تصميم محيطه، ويجلي بحثه الدائم عن ظروف عيش مبتكرة، تحقق له ذاته وتوفر له رغباته المتزايدة، مما جعل مساحة المدينة فضاء ديناميكيًا يكسر أغلال السكون، ويحول صورته الطبوغرافية إلى فسيفساء دائمة التطور وسريعة التحول، كما تعرف المدن في تركيبها المتنوعة تباينا فيما بينها في الماضي وفي الحاضر، وهو ما يكشف عن سعة في المخيال العمراني وتنام في التجسيد المكاني، الذي يساير بدوره خصوصيات الساكنة، ويراعي حساسياتهم الثقافية والعقدية والتاريخية والاجتماعية وغيرها، في تحقيقه لبنية مدن المثالية الخالدة. فالمدينة في تجلياتها للعالم هي الوجه الخارجي للحضارة.

### 3. فضاء المدينة في المنجز الروائي الجزائري

إنّ المتمعن في البدايات الأولى للرواية الجزائرية المكتملة من الناحية الفنية، يلمح ذلك الحضور اللافت لفضاء الريف والقرية، في صورة جليلة للتعلق بالأمكنة القريبة في ذات الروائي، والتي شكلت جزءا معتبرا من فحوى السرود، ويعود هذا الاحتفاء بالريف في الرواية الجزائرية إلى اعتبارات عدة، أهمها الاعتبار المكاني الذي يمثل فيه الريف المرجع التاريخي للمقاومات الشعبية، إذ كان دوما القوة الخفية للثورة الكبرى، والتي مثلت المحطة المفصلية والحاسمة في مسيرة النضال ضد الاستعمار الفرنسي، فكان الإحساس بالانتماء للريف لدى الروائيين الجزائريين يكاد يكون جبليا، تدفعهم إليه العاطفة التاريخية ويوجهها المخيال الجمعي المتوارث حيال قداسة الدروب والجبال والوديان، التي استمدت قداستها حين تلونت بدماء الشهداء وارتسمت لوحة ناصعة للحرية، كما أسرتهم حكايا الأجداد والجدات المفعمة بعبق الذكريات الخالدة ضمن فضاء الريف، وألهمتهم الحنين إلى البطولات المحفورة في صخور الأماكن وفي عمق رمالها في صورة تعانق بين وحي من الأرض باركنه السماء، ليتحول هذا الزخم المكتنز من السرود المتوارثة إلى ثروة حكائية استدعت الاحتفاء بأحداثها في المضامين السردية المتلاحقة، والتي بقيت جزء لا يتجزأ من شخصية الروائيين حين عايشوها من قريب، ونشأت بينهم رابطة تماثل في رسمها رابطة الأصل بالفرع، وتطورت بفعل التخيل الروائي لتعطي في أسى معانها صورة لامتزاج الدم بالأرض، وهو رأي «الطاهر وطار» في قوله :

«إننا كلنا من منبت ريفي أو من قرى صغيرة نئن تحت ضغط الرؤية الريفية للحياة، وإلى الآن - وعلى ما أعرف- فإن نتاجنا إما لا يعكس سوى الإنسان الريفى في صراعه مع الحياة، في انتصاره أو في انهزامه، وإما لا يتعرض إلا بصفة سطحية للمدينة وخاصة للمدينة الكبيرة.» ( صالح مفقودة: 2003: 177 )

كما يحمل التعالق الروائي بالريف دلالة البعد الثابت والأصل الصامد في وجه رياح التبشير والتنصير، التي انتهجها الاستعمار الفرنسي مذ وطئ المدينة، وبدأ في نسج خيوطه الغربية في رسم الأماكن وفي تفصيل المساحات المشكلة للمدينة، وانتهجه أسلوب الإغراء للهيمنة على ساكنة المدينة وإدماجهم في فضاء المعمرين، ومن هذه الأساليب المفضوحة مشروع قسنطينة، الذي يذكره التاريخ كونه جاء في أوج الثورة في صورة تكرس استعمال الاستعمار الفرنسي لمكونات المدينة وحدودها من مشاريع البناء والإعمار لشراء السلم المستحيل، ولاحقاً الهزائم النكراء التي يتلقاها يوماً بعد يوم من الثوار الأحرار، ولجوئه لسياسات إغراء الساكنة عن طريق تحريف الأمكنة وتوسيعها وتزيينها كوسيلة أخيرة للتهديئة والهروب إلى الأمام، والتي بدورها بدأت تخرج عن سيطرته، غير أن سياسة المستعمر تجاه الريف كانت دوماً حقودة وهمجية في ممارسة أساليب قاسية كالتجوع والاستغلال والتعذيب، فالريف كان دوماً ميداناً للحرب ولم يكن في نظر الاستعمار إلا مجرد تجمعات للخارجين عن القانون، ومساحة مستباحة لتجريب فنون القمع، وتطبيق نظريات العنصرية ومخططات الإبادة الجماعية للقضاء على الإنسان الجزائري في العمق، وطمس الأثر العربي في شخصيته، فعلى سبيل المثال نجد فضاء الريف حيزاً لأحداث روايتي «ريح الجنوب» و«نهاية الأمس» ل«عبد الحميد بن هدوقة». ومرد هذا التكتيف لهذين الفضاءين هو تعلق الروائي الجزائري بأصوله التي نشأ فيها، أو كانت له معها علاقة حميمة غير مباشرة، مع توارث الانطباع الجمعي حول شفافية الريف، وملاءمته للشخصية العربية عموماً، فالريف كان دوماً مكاناً مألوفاً ومناسباً للطبقات الفقيرة، ولا تتغير صورته النمطية في المخيال الروائي على تشكيله بأنه صورة للبطانة ولسهولة الاندماج المحلي، وإن كان للمدينة مساحة محتشمة في الروايتين، من خلال إبراز «الصراع العنيد بين مخلفات الماضي ومستجدات الحاضر بين قيم عتيقة وقيم جديدة، بين أنماط تقليدية ريفية وأنماط حياتية عصرية» (شايف عكاشة 1990: 9). فإن روح العاطفة والوفاء للريف والقرية واضحة جلية، كون الريف هو الحضن الدافئ للثورة في مهدها وبعد نضجها والسند الدائم للثوار في نضالهم وكفاحهم، ولا تزال صورته رمزاً للحرية والتحرر بعد الاستقلال، كما يمثل ساكنته الجذور الصافية للجزائريين، على اعتبار المدينة شكلت امتزاجاً بين المستعمر والمستعمر، وكانت مركزاً للاستعمار ومستقراً للمعمرين في نمط العيش، وفي هندسة الشوارع وفي النظام العام للحياة اليومية، فسمات الاختناق والتضييق والازدحام والفوضى مؤشرات عالقة بطيف المدينة، كما تبقى عقدة الاستعمار وروحه قاطنة بالمدينة، ومرتسة على أبنيتها وهيكلها التي تحمل لمساتها على هندستها الغربية .

غير أن فضاء المدينة كان ركبا لأحداث رواية «بان الصباح» لعبد الحميد بن هدوقة، وبدا الروائي مشتغلا على جزئيات المدينة «الجزائر»، ومحتفيا بأركانها من شوارع وساحات وشقق وفيلات وجسور، ليعبر عن انشغالات الجزائري المتحرر من وضعه الجديد ويرسم حياته الجديدة، في مدينة أضحت ملكه وهو ملكها الأوحده، كما يوجه سرده إلى العلاقات الاجتماعية داخل المدن، والتي تحولت إلى شبكة من العلاقات المثقلة بالمشاكل والهموم جراء الهشاشة التي تتسم بها روابط المجتمع المدني، والتي تكون المصلحة الذاتية الضيقة عاملا فاعلا في إقامتها، ويطرح الروائي مسألة تحول الهرم الاجتماعي الجزائري المحافظ إلى طبقات متباينة في مستويات العيش، واتجاهه نحو التباعد المادي والمعنوي في بداية لظهور برجوازية مصغرة تخلف البرجوازية الاستعمارية.

ويطرح الروائي قضايا الهوية والثقافة والعادات والتقاليد، التي بقيت تصارع في وجه الخيارات المتعددة للجزائري الجديد، الذي استمات في نضاله ومحاربه لسياسات الطمس والمحو لأصوله وثوابته في الماضي القريب، ويجد صعوبة في الحفاظ عليها في حاضره، نظرا لعوامل عدة أهمها مخلفات الاستعمار وفتوة دولته المنهكة، ورياح التغريب الموجهة ضده من هنا وهناك، للتشويش على إقامة دولته الحديثة.

كما يقلص «مرزاق بقطاش» من صورة مدينة الجزائر العاصمة، ويقزم من فضاءاتها في سرد روايته «حمائم الشفق»، التي حصر أحداثها بين غابة وحي، حكمت فصولها هموم مساحة مكانية محددة في بداية الثورة التحريرية، وحمل أبطالها من الأطفال راية أحداثها، وهو ما جعل النقاد يحكمون على فضاء الأحداث بالمحدود جدا، وشبهوه بفضاء الريف، خاصة عندما اشتمل على موضوع الثورة، الذي هو مؤشر أساسي على معنى الريف، وهو رأي الدكتور «شايف عكاشة» في قوله :

«أن طيور في الظهيرة نفسها قد ألبست المدينة الثائرة ثوب الريف، ولعل ما يؤكد هذا أن بقطاش نفسه لجأ في هذه الرواية إلى الغابة ليحتفي بها... إن اهتمام بقطاش بثورة المدينة لا يعني أنه كان يريد أن يدخل لهيب الثورة إلى المدينة» (نفس المرجع، ص 63)

وهو ابن المدينة الذي سجل تأوهاتما ووقف عند زفراتها، غير أن حدود الفضاء المدني اتسعت مع روايته التالية «البراة» حيث اتضحت معالم المدينة المستعمرة أكثر، وأدخل الروائي مزيدا من الأمكنة كالبحر والقصبة والثكنة والمدرسة والسوق والمقهى والميناء، كأنه يرسم فوتوغرافيا المدينة ويمسح معالمها العتيقة، لكنه لا يتماهى معها حد الذوبان في مدلولاتها، بل هي سيرورة نحو تمكن المدينة من فضاءات الرواية عند الروائي.

ولا يخرج بقية الروائيين الجزائريين عن التعبير عن هموم المدن الجزائرية وآمالها، فنجد دلالة المدينة حاضرة وفاعلة في توجيه السرد وفي تحفيزه، فالروائي يتعلق بالفضاء المنشأ ويوظفه في حكيه، فعلى سبيل المثال نجد مدينة «قسنطينة» التي جمعت الطبيعة الكامنة بين الصخور مع المعجزة المعمارية المعلقة بالجسور في تحديها لقوانين الهندسة المدنية وخلوصها من شروط السلامة فيها، لتتعانق على جسورها السماء بالأرض، فتفتتح الحياة الأبدية للمكان وتلهم المرهفين برسم الخوارق على التصوف والتجلي، وتحضر فضاءاتها في أعمال «الطاهر وطار» على غرار روايته «الزلال» التي بنى الروائي معمارها على سبعة فصول، يسمي كل فصل على أحد جسور المدينة بدءا بباب القنطرة، سيدي مسيد سيدي راشد، مجاز الغنم، جسر المصعد، جسر الشياطين، وانتهاء بجسر الهواء، في صورة فنية سردية حولت المدينة من هيكل ساكن إلى خطاطة ديناميكية، لإقامة بناء روائي ناطق ومتلون بشتى صنوف التخيل وأطياف الإبداع اللامتناهي، ومن جهتها «أحلام مستغانمي» في روايتها «ذاكرة الجسد» التي تناولت المدينة بشوارعها ومقاهيها وجسورها بطريقة تناغمت فيها الأسطورة مع زوايا الأمكنة، وخصوصا مع الجسور التي وظفت بطريقة سردية تفاعلية، يشكل ضمنها المكان بؤرة النهاية والبداية مع أحداث الرواية ومع حركية الشخصيات، حيث توظيف السارد لمعالم الأسطورة وبثها في تخوم الحكي، حين يستثير الجسور المعلقة لتبسط من ذاكرتها حكاية المكان، إذ أن «اسم كل جسر من جسور المدينة يخلف وراءه حكاية نشأته وكبره، ومن ثمة ذوبانه في ذاكرة قسنطينة الشعبية» (صالح، ولعة 2000: 55).

والمدينة عند «رشيد بوجدر» لا تحمل اسمها في السرد صراحة، مما يجعل القارئ يستجمع مؤشرات وأوصاف متفرقة في فضاء النص، حتى يستقر على تحديد الفضاء الجغرافي لأحداث الرواية، فهي إذن فضاء مفتوح تحتكم إليه مكونات السرد وفق رغباتها ونزواتها الفطرية والمكتسبة، فترى فيه الملاذ والمفر، وأحيانا فهو المستقر المؤقت لأن المدينة في روايات بوجدر على غرار روايته «التفكك» تقدم الوجه المتقلب للمدينة بين صور السلبيات والإيجابيات، فالسرد يكاد يخضع للمزاجية المتقلبة للسارد، ويساير النظرة الذاتية للروائي في رصد أوجاع المدن وما تعانیه من صخب يطبع يومياتها، ومن اكتظاظ شوارعها واختناق مختلف فضاءاتها، بفعل النمو الديموغرافي وما ينعكس على الأمكنة من ضيق في العيش، وظهور آفات اجتماعية ترهن الأحلام الجميلة وتلطيخ الأفاق المشرقة للإنسان الجزائري الحالم إلى إثبات ذاته وسط ركام المدينة المتهورة.

إنّ المدينة عند «بوجدر» مساحة متحررة من قيد التعريف والتحديد، وصورة محصورة بين ثنائيتي الاضطراب والاستقرار، تبحث في ذاتها عن مكامن التأقلم مع

ثورة الظروف المعيشية، ومع قلق الذات الناقمة على تحولات المدينة، فهي مرتبهة بين السوداوية الناجمة عن الطبايع الشاذة للسكان، وبين التطور الرهيب الذي تعرفه حدود المدينة. موازاة مع ما يحدث بين الحدود من سلوكات، تجسد أصناف الأدمية في علاقتها مع محيطها الفسيح.

فدلالة المدينة التي تحمل معاني التشاكل والتداخل في ظاهرها وفي عمقها، جعل رسمها في الرواية الجزائرية يعبر عن هواجسها المفتوحة على أزمة الفرد والجماعة، وتراوحت صورتها الحكائية بين عدة رؤى سردية متضاربة في الطرح ومتباينة في زاوية التوصيف، تخضع لانطباعات وأحكام روائية متراكمة، تعود إلى التركيبة الشخصية للروائي وإلى ظروف تكوينها وتطورها، ويبدو الروائيون مفتونون بالمدن القريبة من انتمائهم أو تلك التي نشأوا في حضنها، حتى جاء وصفهم للأمكنة قريبا من حقيقة الواقع، وجاءت صور المدينة واضحة ودقيقة. كون بنية المدينة الجزائرية لم تعرف الاستقرار عبر تاريخها البعيد والقريب، مما جعل معمارها كتابا مفتوحا على عدة حضارات وعلى عدة مدارس هندسية، فهناك من الروائيين من استعمل معناها الهندسي المباشر، الذي يرى في المدينة معمارة صامتا وهيكل بلا روح، فيحصرها في سرده عند جملة الأماكن المرئية المكونة لفضاءات المدينة، كالأزقة والبيوت وما يتراءى للبصر من زوايا المدينة، ونلمسه في روايات «الطاهروطار» و«عبد الحميد بن هذوقة» وأقلام أخرى، ترى في المدينة روحا وحياء مفعمة بالدلائل والمعاني الخفية بين اللبنة المترابطة وفي عمق الشوارع المترامية، غزتها عوامل ثقافية وفكرية، تتخيل في المدينة ذاتا لا تختلف عن الذات البشرية بل هي امتداد للروح الإنسانية. حيث «المكان عجينة قابلة للتشكل حسب رغبة أو حركة الزمان... فهناك مكان في الحس، ومكان في الذهن» (علي شلق 1979: 24/23). وتمثله روايات جاءت بعد الفئة الأولى، كروايات «واسيني الأعرج» و«رشيد بوجدر» و«الروائيين المتأخرين أو الروائيين الشباب، تحولت معها المدينة إلى تيمة هامة وبؤرة مؤثرة في بناء الحكى، تحاكي نظرة الإنسان للعالم الذي أضى قرية صغيرة لا تعترف بالحدود المادية، وتعتبر المدينة امتداد لهموم المواطن الجزائري، ومحددا هاما لشخصيته الضاربة في أعماق التاريخ الحضاري، إذ تعدّ جغرافيا الجزائر ثروة مكانية غنية بالذكريات ومثقلة بالتسجيلات السردية الواقعية والخيالية، ومساحة متفاعلة مع عدة حقب متنوعة، تختلف حكاياتها باختلاف المسافات بين أجزاء الأمكنة، ويعد الإنسان فيها انعكاسا حتميا لتمظهرات الأمكنة وتلوناتهما، «ذلك أن الإنسان في المدينة يشعر بأنه يعيش حالة ضياع، نظرا لتعدد جوانب الحياة فيها وهذه الحالة النفسية هي التي تجعل الناس يتعدون عن الاستجابة العاطفية، نتيجة لتعدد الحياة الحضرية» (محمد عاطف غيث: دت 129).

كما يقدم «واسيني الأعرج» فضاء المدينة في رواياته بطرق سردية مبتكرة، يظهر عليها قصصية الاعتناء بملامحها وفاعلية الاشتغال على دورها في مجمل الحكيم، فهو يظهرها في صورة أوسع من التقديم المألوف في كثير من الروايات الجزائرية، إذ يتجه واسيني صوب مضمرة المدينة وصوب الدلالات والمعاني البعيدة لمكوناتها، ويصقلها بقدرة تنم عن سعة اطلاعه على عالم الرواية في شقه النظري الأكاديمي، كما تعكس تكون شخصية الروائي بين فضاء الريف والمدينة، فهذه الثنائية كان لها الأثر الواضح في تشكيل عوامل المدن في رواياته، فهو يخضع المدينة لأوجه التجريب الروائي من خلال تحويلها إلى صوت ناطق باسم الأمكنة والأزمنة، حين يوظف المدن التاريخية العريقة في مواجهة المدن الحاضرة لاستنطاق الماضي وموازنته مع الحاضر، ومنها تتوالد نقاشات حادة حول قضايا يعيشها الإنسان المعاصر، ويعاني من آثارها كظاهرة الاغتراب الزماني والمكاني، ومعضلة استيعاب روافد الحداثة وما بعدها، وصراع الحضارة ومخلفاتها، وكل مشاكل الإنسان الحديث، ولهذا نجده يستخدم خام التراث العربي والعالمي في سروده، ويجعل من المدينة عالما موسعا لكل القضايا، وأحيانا كثيرة تكون هي بؤرة الصراع، كما سنلاحظ في روايته «البيت الأندلسي» على غرار رواياته الأولى، أين كانت المدينة محفزا للسرد، وغاية لتحريك كل المكونات السردية الأخرى، وجاء توصيفها مليئا بالمعاني المتضاربة والثنائيات المتناقضة، مما حول السرد إلى حركية تفاعلية، تشبه ضجيج المدن وصخبها المتنامي .

إنّ المدينة عند «واسيني» ذات مستقلة في كينونتها، تتكرر مع الحكيم، وتحدد الانطباع العام للقارئ من خلال الدلائل والمؤشرات التي يضيفها السارد على سحنها، مما يجعل المتلقي وجها لوجه مع أصوات الفضاء المرسومة على أمزجة عناصر السرد، فتراها تتراوح بين الضيق والاتساع، وتتقلب بين الانتماء والانسلاخ في علاقتها بالمدينة.

واللافت للانتباه في تناول «واسيني» للمدينة هو تجاهله لماديات المدينة، وتجاوزه لزخرف معمارها، وإمعانه النظر في ماورائيات الأبنية والتضاريس، واحتفاؤه بالمعاني والدلالات التي تخلفها على أمزجة الشخص، فالمدينة عنده إطار مليء بالاضطراب والقلق النفسي، تضيق وتوسع مساحته، وترسم على محيا الشخصيات مخلفاته، كما يستعمله لتوجيه الحكيم والتوسيع من دائرة الأحداث النشطة في مناطق محدودة من السرد، وإضفاء نوع من الواقعية السردية في توصيف أجزاء المدينة وحراراتها، واستقراء صور الأرقية والأفنية، واستنطاق الأبواب المفتوحة والموصدة، وتوصيف النوافذ الشفافة والمعتمة، وتفسير تاريخها وأبعادها الفنية العميقة، والتعليق على امتدادات المدينة من خلال أوصاف البحر، الذي يعتبره «واسيني» مرتكزا حاسما في الصراع الحضاري

بين الشرق والغرب، إذ كثيرا ما وظف البحر بصورتين مختلفتين، في الصورة الأولى يوظف معاني البحر الواقعية، فهو في رواياته ميدانا مكملا لأحداث البر، وشاهدا على أحداث المعارك البحرية الحاسمة بين الفكر الغربي والعربي، ورمزا للتلاقح الحضاري والتناوب على قيادة قاطرة التداول في السيطرة على كتابة أمجاد التاريخ، وكان دوما المطية الحاملة لسفن الحرب والسلم بين الضفتين والجسر التقليدي للتواصل بين العالمين المتجاورين. وفي الصورة الثانية وظفت طبيعة البحر رمزا للشفافية ومساحة للروح والتماهي مع تموجاته وهدوءه، وفضاء للتجلي النفسي للشخصيات الروائية، وملاذا للهروب من ضوضاء المدينة ومن ظلاميتها المعتمة للأمال والأحلام، التي تحد من انشراح الأمزجة النفسية ومن تعايشها مع ظروف المدن المتمردة.

### خاتمة

إنّ دلالة المدينة ضمن فضاء الرواية الجزائرية هي مزيج من الأحاسيس والتعالقات بين مكونات الأمكنة وبين عناصر العملية السردية، حين يصمم التخيل الروائي زواياها القريبة والبعيدة، بما يباح له من تحوير وتصوير للأمكنة بكل مرونة وليونة، فتستحيل المدينة إلى فضاءات حية، ومعاني عميقة، نجدها في المتن الروائي ترتدي أبوابا مختلفة ألوانها، تنفي عنها صفة السكون، وتسكن أجسادا تلغي عنها صفة الموت، إنها روح لذاتها وكثيرا ما تعبر أنفاسها لغيرها، لتعيد إليهم الحياة، وتأخذ دورا حاسما في تحديد المصائر الخاصة بمكونات الحكى الأخرى، وتسهم في تأطير المسارات السردية الكبرى.

وإذا ما تأملنا التحولات التي جدت في تناول الأمكنة في الرواية الجزائرية نجد فيها نزوحا نحو إقرار الأمكنة الواسعة، كالأهتمام بتوظيف المدينة التي جاءت مكانا مركزيا مكثفا تتجلى فيه بصورة مكشوفة من الأمكنة المفتوحة، لتتحول من المركز المتمدد المحلي إلى المركز المتمدد الخارجي، وتنتفح على المدينة الغربية، وعلى صورة البحر المرتبط بعلاقة وثيقة بالمدينة، ومع البيوتات المكونة لها، مما انعكس على تعميق البعد الدلالي وعلى كثافته.

### قائمة المراجع

- ابن خلدون. 2006. مقدمة ابن خلدون. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، مصر.
- بهيجة، المصري إلهي/عامر، الديك. 2011. السيرة الذاتية في الخطاب الروائي العربي. مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
- جورج لوكاتش. 1979. الرواية كملحمة برجوازية. ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت.
- جيرار جنيت وآخرون. 2002. الفضاء الروائي. تر عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار

- البيضاء، بيروت، لبنان.
- حسن، بحراوي. 2009. بنية الشكل الروائي، الفضاء - الزمن - الشخصية. المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الدار البيضاء، بيروت، لبنان.
- رزاق، إبراهيم حسن. 1984. المدينة في القصة العراقية القصيرة. دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق.
- شايف، عكاشة. 1990. مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- شرف الدين، ماجدولين. 2010. الصورة السردية في الرواية والقصة والسنا. الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر.
- الشريف، حبيلة. 2010. الرواية والعنف (دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة). عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن.
- الشريف، حبيلة. 2010. بنية الخطاب الروائي. دراسة في روايات نجيب الكيلاني، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.
- صالح، مفقودة. 2003. المرأة في الرواية الجزائرية. جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.
- صالح، ولعة. 2000. المكان ودراما المكان في رواية العالم بلا خرائط لجبرا وعبد الرحمن منيف. م التبيين، ع16، الجزائر.
- صالح، صلاح. 2014. المدينة الضحلة. تريب المدينة في الرواية العربية. منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق.
- عبد الحميد، جيدة. 1980. الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر. مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان.
- عبد المنعم، شوقي. 1981. مجتمع المدينة. دار النهضة العربية، بيروت.
- علي، شلق. 1979. نجيب محفوظ في مجهوله المعلوم. دار المسيرة، بيروت لبنان.
- قرطي، خليفة. المدينة في الرواية الجزائرية العربية (من 1973-1992 إلى) رسالة ماجستير. إشراف عبد القادر هي، جامعة الجزائر، موسم 94/95.
- محمد، عاطف غيث. 1972. علم الاجتماع الحضري. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
- مصطفى، عمر حمادة. 2012. المدن الجديدة (دراسة في الانثربولوجيا الحضرية). دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية.
- والسن مارتين. 1992. نظريات السرد الحديثة. ترجمة حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة (د. ط)، رابطة الكتاب الأردنيين.

## مستخلص

تهدف هذه الصفحات إلى تسليط الضوء على موضوع فضاء المدينة ضمن الفضاء الروائي الجزائري، مع التركيز على كيفية تمثيل المدينة في الرواية الجزائرية. لا تهدف الدراسة إلى تناول جميع مظاهر المدينة سواء من الداخل أو من الخارج، بل تسعى إلى إبراز المدينة كإنجاز إنساني متراكم، غني بالدلالات على عدة مستويات معرفية ورمزية. تتخصص هذه الدراسة بشكل خاص في تحليل التفاعل بين فضاء المدينة والعوالم الإبداعية للرواية الجزائرية، بهدف استكشاف مكانة المدينة في الفضاء الروائي الجزائري. كما تسعى إلى دراسة مدى اهتمام الروائيين الجزائريين برسم ملامح مدينتهم وتحليل الأبعاد الدلالية التي تطبع وصفهم للمدينة المعمارية للمدينة في نصوصهم السردية.

## كلمات مفتاحية

المدينة، الرواية الجزائرية، الدلالات، الفضاء، التفاعلات

## Résumé

Ces pages se proposent d'éclairer le thème de l'espace urbain dans la littérature algérienne, en s'intéressant particulièrement à la manière dont la ville est représentée dans le roman algérien. L'objectif n'est pas de couvrir toutes les facettes de la ville, ni dans sa dimension interne ni externe, mais plutôt de souligner la ville comme un produit humain, un espace en constante évolution, riche en significations sur divers plans cognitifs et symboliques. Cette étude s'intéresse plus spécifiquement aux interactions entre l'espace urbain et les univers créatifs des écrivains algériens, afin d'examiner la place de la ville dans l'espace romanesque algérien. Il s'agit également d'analyser l'attention portée par les romanciers à la description de leur ville, en explorant les dimensions sémantiques qui marquent l'architecture urbaine dans leurs œuvres narratives.

## Mots-clés

Ville, roman algérien, connotations, espace, interactions

## Abstract

These pages aim to shed light on the theme of urban space within Algerian fiction, focusing particularly on how the city is depicted in Algerian novels. The goal is not to cover all its manifestations, both internal and external, but rather to highlight the city as a human achievement—an ever-evolving space rich with various meanings across multiple cognitive and symbolic levels. This study is more specifically concerned with the interactions between urban space and the creative worlds of Algerian writers, examining the place of the city within Algerian fictional space. It also aims to explore the extent of the Algerian novelists' attention to portraying their city, and to analyze the semantic dimensions that shape the depiction of urban architecture in their narrative works.

## Keywords

City, Algerian novel, connotations, space, interactions